قراءة فى الطـــب الاشورى

بقلم / محمد عماد الدين فضلـــى

يطلق اسم الطب الاشورى على طب ما بين الرافدين Mesopotamia بالرغم من أنه يشمل الطب عند البابليين والاكاديين الى جانب طب الاشوريين ، وذلك يرجع الى أن أهم المصادر التى عرفها الغرب الحديث كانت الواح مكتبة أشور بانيبال التى كشفها البريطانى أوستن هنرى لايارد فى نينوى عام ١٨٤٩ وترجم أكثرها الى الانجليزية ريجنالد تومسون ويوجد منها حاليا فى المتحف البريطانى ٦٦٠ لوحة طبية من بين ١٢,٠٠٠ لوحة .

من الحقائق التاريخية التى تدعو الى التساؤل أن هذه الحضارة الطبية لم تحظ باهتمام يمكن مقارنته بما حظيت به قرينتها الفرعونية ، رغما عن أنهما مشتركتان فى العراقة بل ويقول البعض بقدم حضارة ما بين الرافدين عن حضارة وادى النيل كما أنهما كانتا متصلتين احداهما بالاخرى فقد سجلت الالواح الاشورية أن الملك توشراتا ملك ميتانى أرسل للفرعون امينوفيس الثالث طبيبا ليعالجه وأرسل معه تمثال الالهة عشتار وذكر فى لوح آخر ان موطاليش بن مرشيلش ملك الحيثيين عالجه طبيب مصرى من فأفأة عصبية ولما لم ينجح أرسل له الملك البابلى (ناظم الزوتاشى) طبيبا بابليا ومما يدل على عراقة الطب الاشورى منحوتة يضمها متحف اللوفر بباريس ترجع الى عام ٢٠٠٠ ق.م عليها دورق فيه صورة لحيتين ملتفتين يقف خلفهما "جوديا" أمير لكش ومهداة الى نينكش زيدا اله الشفاء مما يدل على أن الطب الاشورى سبق الطب الاغريقى فى اتخاذه الحية رمزا للشفاء ، وفى ملحمة جلجاميش قصة تدل على هذا الامر .

اذا كان الطب الاشورى بهذه العراقة فلم لم يحظ بما يستحقه من الاهتمام ؟

يرجع ذلك الى طريقة تدوين الاشوريين لعلمهم فقد استخدموا الواح الطين ولم يستخدموا الحجر أو البردى كما فعل المصريون القدماء ، فضاع الكثير من أنبائهم لان الواح الطين يطمسها مرور الزمن كما أنها تتحطم فى أثناء عمليات التنقيب ،وقد لجأ المنقبون الى تحميصها قبل نقلها بهدف المحافظة عليها الا أن ذلك كان يؤدى الى التصاق التراب ببعض اجزائها فيخفى معالمها .

ويرجع بعض الدارسين غموض المعلومات التى وصلتنا عن الطب الاشورى الى أن من قام بترجمتها من الغربيين كان يجهل اللغة العربية التى ينتمى اليها الخط المسمارى المكتوب به لوحات الطين الاشورية ، كما أن تلك الالواح مليئة بمصطلحات تستعمل كناية عن الامراض ولا يفهم النص الا بعد تبين مدلولات هذه المصطلحات فالامراض الزهرية مشار اليها بيد " عشتار " الهة الحب والظلام والامراض المعدية يكنى عنها بيد "سن" والامراض العصبية بيد "ليليتو" وهكذا .

كما أن هناك تعابير لاتفهم الا بعد تأويلها مثل زيارة معبد شماش " كناية عن اقتراف اثم او الاصابة بالجنون ، وهناك اسماء نباتات او معادن مجهولة لنا مثل قدم الغراب الذى قد يوءخذ بمعناه الحرفى او نبيذ البقر ويعنى ماء الورد بلغتنا الحديثة وكذلك زيت الجبال للدلالة على النفط . وبالرغم من كل هذه المعوقات وكذلك من النقص الفادح فى نسبة ما اكتشف من الالواح الاشورية الى ما يعتقد أنه لازال باقيا تحت الارض ، فقد تجمع قدر من المعلومات يكفى لتكوين فكرة واضحة عن أساسيات الطب الاشورى نذكر منها :-

أولا : الاهتمام بالصحة العامة :

فقد عرفت مجارى الصرف الصحى فى كيش منذ عام ٣٠٠٠ ق.م . ووجدت المراحيض فى أور ٣٥٠٠ ق.م .

ثانيا : ان بلاد ما بين الرافدين وهى بلاد زراعية أساسا ، كتبت دستورها الطبى قبل نشرتها الزراعية بعدة قرون ولعل ذلك دليل آخر يدل على أن العلاج الطبى من أول ان لم يكن أول ما حاوله الانسان .

ثالثا : قام الطب الاشورى على أسس مادية تجريبية (امبيرقية) الى جانب الأسس السحرية والكهنوتية ولعله لم يعرف الاسس المنطقية الصورية مثل تلك التى بنى على أساسها طب الاغريق فى نظرية الاخلاط ، وهو فى ذلك كله لا يختلف عن الطب الفرعونى ، ولعل ذلك التشابه يعكس . تشابه ظروف نشأة الحضارتين ، والمراحل الفكرية التى كانت تمر بها البشرية فى تلك الازمنة . أما كون الطب الاشورى يقوم على السحر فواضح من الادعية والتعاويذ التى كان يوصى بترتيلها اما بمفردها او بعد تناول العقاقير . ومن أمثلة ذلك دعاء لعلاج العين بقوله :

أيتها العين الصافية ، أيتها العين ذات الصفاء المضاعف ، يا عين البصر الصافى أيتها العين المعتمة ، أيتها العين ذات العتامة المضاعفة ، يا عين

البصر المعتم أيتها العين النائمة ٠٠٠٠٠٠ الخ ويختمها بقوله أنه دعاء ايـــا ومردوخ ، دعاء نين احاكدو سيدة السحر ، كولا عجل بالشفاء الذى هو هديتك ٠

ومن أمثلة التفكير السحرى فى الطب الاشورى اعتقادهم فى الحسد بالعين ، فقد كانوا يؤمنون بوجود سبعة من الشياطين تسمى المسقم وتلقب بالاشباح السبعة وهم توابع لعشتار الهة السحر والظلام وتلك الشياطين تستطيع أن تسبب الاوبئة ، كما أنها قد تسكن جسد انسان برىء حتى اذا ما نظر الى شخص آخر خرجت الشياطين من عينيه فأصابت ذلك الشخص دون أن يستوجب ذلك سوءنية الانسان البرىء كما أنهم ابتكروا لكل برج من الابراج الاثنى عشر علاقة لجزء من أجزاء الجسم وبنوع أو أكثر من الامراض وقد تميزت الامراض النفسية عندهم بارجاعها الى تلك الارواح نتيجة اقتراف المريض لآثام تؤدى الى حجب حماية الارباب اما نواحى المدخل الكهنوتى للطب عند الاشوريين فيتمثل ذلك فى اعتقادهم بوجود ثلاثة آلهة عظام هم ايا (اله الاعماق) ٠ الذى أصبح فيما بعد اله الشفا ٠ وبعل اله الارض وآنوا اله السماء ، الا أنهم لم يكونوا يستنجدون بتلك الالهة مباشرة لانشغالهم بأمور أخرى ، فكانوا يتشفعون بمن دونهم مثل مردوخ ابن آيا وزوجته ويساعدهما الهة المدن الكبيرة مثل نيبو وتاشميت فى مدينة نورسبا (وترجال وألتو) فى مدينة الكوث ونينب فى مدينة لكش ، وفيما بعد أصبح الاله نينورتا الها للشفاء ورئيسا للاطباء يساعده (كولا) فى هذه المهمة ٠

وقد كانوا يعتقدون أن الاشباح السبعة سابقة الذكر تعاكس تلك الالهة وكانوا يبدأون أدعيتهم بالتوسل الى تلك الالهة مثل قولهم ٠ بل هو دعاء إيا ومردوخ دعاء دامو وكولا دعاء نين احاكدو سيدة السحر ، آيا كولا عجل بالشفاء الذى هو هديتك ثم يرتل الدعاء ٠

ومن ممارسات المدخل الكهنوتى ما كانت تقوم به كاهنات المعبد من مزاولة البغاء مع الغرباء خدمة للمعبد بعد تعقيمهن جراحيا ولذا كن يدعون بالاناث الخصيات ٠

أما المدخل المادى التجربى (الامبيريقى) فهو الغالب على ما ينشر من ترجمة للالواح الطبية الاشورية فهى مليئة باسماء النباتات (٢٥٠ نوعا) والمواد المعدنية (١٢٠ مادة) ومواد أخرى متفرقة (١٨٠ مادة) يضاف اليها الكحوليات مثل البيرة القوية وبيرة السمسم والنبيذ ثم الشحوم والزيتوت والعسل والشمع والحليب وقد كان الطبيب الاشورى ، يشرف على تركيب الدواء او يصنعه بنفسه فى شكل محاليل وعصارات ومنقوعات ومعلقات وسفوفات ولعوقات او حقن شرجية أو لبوسات شرجية وفرازج مهبلية

أو نشوقات وغسولات ومراهم وقطرات للعين أو الاذن ولبائخ ومساحيق وضمادات كما كان يحقن بعض الادوية فى الاحليل بواسطة أنبوب مجوف وفى لوحة (بنبولئو) أعمدة ثلاثة ذكر فى أولها أسماء النباتات الطبية وفى ثانيها المرض الذى يعالج بكل منها وفى الثالث الكميات وعدد مرات التناول يوميا وهل يستعمل على الجوع أم بعد الاكل وغير ذلك من الارشادات • وقد اكتشفت آلات جراحية على ضفاف الفرات ترجع الى العهد السومرى كما ورد ذكر الجراحة فى نصوص عديدة ونظمت قوانين حمورابى عمل الجراح أكثر مما فعلت بالنسبة للطبيب وقد ذكرت النصوص قرح العين واستئصال الظفرة وبط خراجات العين والاذن وحشو الانف لعلاج الرعاف وتصريف خراج الجنب وبط خراج الكلية وقلع الاسنان ومعالجة الجروح الكبيرة بالخياطة وتثبيت الكسور •

وكان الطبيب يحمل فى حقيبته أعشاب وأدوية وبعض الالات الجراحية وبعض اللفائف والعصابات ومن ارهاصات التفكير المادى فى أسباب المرض ما كانوا يظنونه من أن الامراض تسببها أجسام غير منظورة تدخل الجسم مع الهواء اوالطعام أو عن طريق الجلد وهو ما يضاهى ما نصفه اليوم بالعدوى ومن الامراض التى اعتقد الاشوريون فى انتقالها بالعدوى مرض ا لجذام والمادة ٢٧٨ من شرائع حمورابى تبطل بيع العبد اذا ما ظهر به الجذام بعد شهر واحد من بيعه ثم طالت الفترة بعد ذلك الى مائة يوم ، كما أنهم كانوا يعتادون صب الماء على اليدين قبل الأكل وبعده •

وقد عرفوا من التشريح ما كشفت عنه جروح القتال الكبيرة وماكان يصفه (البارع) عند فحصه لاحشاء القرابين وبذلك عرفوا أن هناك قلبا أيمن وآخر أيسر وأن هناك كبدا لها أقنية ووريدا بابيا ووريدا أجوف سفلى ومعدة وبنكرياس وطحال وكلية وحالب ومثانة وبروستاتا ورحم وشرايين وأوردة وعضلات لها أوتار كما كوتوا فكرة فسيولوجية عامة عن سيطرة الجهاز العصبى على الجسم كله وعن أهمية الكبد وكثرة وظائفه ومن هذا نتبين أن الطب الاشورى يشترك مع الطب الفرعونى فى اعتماده أساسا على المدخل التجربى والعلاج المادى للمرض دون تفسيرات منطقية مثل تلك التى ادخلها الاغريق ، مع بقايا من التفكير السحرى والكهنوتى وفكرة حيوية الاشياء (animism) ولعل هذا يفسر لنا تقسيم الاشوريين لفئات الاطباء الى ثلاثة فئات :

أولها : الكاشف (Asipu) وهو أول من يزور المريض وهو الخبير بتشخيص المرض

والتنبوء بما ستئول اليه حالة المريض ، وقد تميز الكاشف بخلفية متكاملة من المداخل كلها فهو يتطير من الطيور التى تمر به وهو فى طريقه الى بيت المريض ويعطى تفسيرا سحريا لكل ما يمر به من أشخاص أو أشياء أو مواقف الى جانب فحص المريض ثم حساب الفلك وبناء على ذلك يدلى الكاشف برأيه تنبئه بمعقبات المرض ثم يترك باقى العلاج لطبيب من الفئة التالية مع قيامه هو بالأدعية اللازمة .

الفئة الثانية هى فئة الاسّى : وهوالطبيب المهتم بالجزء المادى من الطب ، وقد أخذت مكانته تزداد مع الزمن فى حين تدهورت مكانة الكاشف تبعا لما كان يلاحظه الجمهور من أهمية العلاج المادى بالنسبة للعلاج الروحى الذى يمارسه الكاشف الا أنه لوحظ تقارب بين الكاشفين والاساه بمرورالزمن اذ اعترف كلاهما بأهمية المدخلين .

أما الفئة الثالثة : فهم الجراحون الا أن هوءلاء لم يذكروا صراحة فى النصوص الطبية الا نادرا ولعل ذلك يرجع الى ممارستهم السرية للجراحة خوفا مما ورد فى شرائع حمورابى من عقوبات قاسية للجراح اذا ما فشل فى جراحاته ، وقد يرجع هذا ايضا الى عدم تقدير الجراحة كما كان سائدا فى معظم الحضارات بما فيها الحضارة الغربية الاوربية الى مطلع هذا القرن ، فقد اعتبر الجراح خليفة لحلاق الصحة وليس طبيبا بالمعنى الذى يقدره الناس عادة .

أما ترتيب الاشوريين لوصف الامراض فقد اتبعوا فى ذلك ترتيب أعضاء الجسم فبدأوا بالرأس ثم العين ثم الفم فالاذن وهكذا الى أن ينتهوا بأمراض القدم .

أما عن وصف الامراض العصبية فى الكتابات الاشورية فمن الصعب تبين الصور الاكلينيكية التى نعرفها الانّ بسبب سقوط اجزاء كثيرة من الالواح الطينية ، كما أن الاوصاف المكتملة معظمها غامض وهناك سبب ثالث وهو انتشار الصور الاكلينيكية التى نعرفها الانّ فى الاجزاء المختلفة مثل أمراض الرأس والعين والفم والقدمين .....الخ مما يستوجب قراءة مستكملة لكل النصوص قبل حصر الصور الاكلينيكية العصبية .

الا أنه من الممكن ذكر الحالات الاتّية :-

لوحة رقم ١٤ ط أ ، ٤ ، ٧ (٨١-٧-٢٧).

فذلك الرجل قد ذهب الى معبد شماش (اصابه الجنون) و٠٠٠٠ خذ صمغ الصنوبر ولفه بصوفة وضعه على بطنه ثم دعه يأكله بخبز الحنطة ٠٠٠٠ ويداوم على ذلك وسوف يشفى ٠

فذلك الرجل قد ذهب الى معبد شماش (او سن او نينورتا) ولذا فانه سوف يتخيل اشياء يراها لمدة سبعة أشهر ٠ ضع على رأسه ٠٠٠٠ وداوم على ذلك لسبعة أيام وسوف يشفى مرض ذلك الرجل الذى ذهب الى معبد شماش اوسن او نينورتا والذى يرى أشياء خيالية ولاجل شفائه ٠٠٠٠٠ ضع حب العزيز على رأسه ٠٠٠٠ وداوم على العلاج وسوف يشفى ٠٠٠٠٠٠ انتهى ٠

وكلها أوصاف لامراض عقلية تصحبها هلوسات ٠

لوحة رقم ٦٤ ط أ ٢٢ ، ٢ (ك٠ ٣٥٥)٠

الواجهة :

اذا أصاب الرجل وجع فى الرأس ووخز فى الفم واضطراب فى العين وطنين فى الأذن واختناق فى البلعوم ووجع فى عضلات الرقبة والكتف والصدر والخاصرة والاسفل والتهاب فى المعدة وحرارة فى الامعاء ، وألم فى اليدين والقدمين والركبتين فهو اما عنده ٠٠٠٠٠ وأن أمعاءه مصابة أو كليته هى السبب ٠٠٠٠٠ وهو مصاب بالانحباس الامساك أو انحباس الريح أو أن كليته مصابة أو أنه مريض بالصفراء أو البرقان أو أنه مريض باللعنة اوالروماتيزم او يد الشبح أو أنه مريض بالعفاريت التى تجمع الرءوس للشيطان ٠٠٠ ولاجل تلطيف وساوسه ٠٠٠٠ الخشخاش حجر الشكران والشيح والبلسم والقنة ٠٠٠٠ والسوس وعرق السوس واليبروح وكافكادو والسماق ولبدوسو والشنان وعرق القنة واللوف والمغر ٠ انتهى ٠

وهى صورة تشبه الشلل البصلى الكاذب بسبب غضاريف الرقبة أو غيرها من الاسباب وفى لوحة أخرى لامراض العين جاء الوصف الاتى: عندما تهاجم الحمى رجلا وتنتفخ أوردة جبهته وتصيب عينيه غشاوة ووجع شديد والتهاب وسيلان الدمع فخذ له ٣/١ قا من نبات الزعرور المقطع وفى حجاز الولادة اصحنه ٠٠٠٠٠٠٠

وهى صورة أشبه بانسداد الجيوب الوريدية الكهفية داخل الجمجمة Cavernou Linu وفى لوحة رقم ٥ طا ١٧ ، ٤ (ك ٦٩٠٦) (أمراض العين) . .

٨ـ اذا أصبح الرجل يرى الجسم المنظور وكأنه متعدد فخذ دهن حبة السعد ودهن الأسد (الخشخاش) وصمغ الحلتيت وصمغ صنوبر حلب والشنان .... فى أجزاء متساوية تدق مع تراب النحاس وعسل الجبال وتستعمل ..... لعينيه .

وهى صورة تصف حالة الشفع Diplopia

وفى لوحة رقم ٦٩ ط أ ٢٤، ١ (١٤٣) (أمراض الفم) .

٢ـ اذا تألم الرجل من فمه وانعوج الى اليمين ولم يعد قادرا على السيطرة فى كلامه فان التشخيص يثبت فى اليوم السادس وفى اليوم السابع .....ذرق الحمام والشمع وزيت السنط واعجنها واضف اليها عطر سنور الزباد. ... عينه وفمه ..... ليوم واحد ليومين يكون الطبيب ..

٩ـ اذا تألم الرجل من فمه واعوج الى اليسار لدرجة فقدانه السيطرة على تكلمه .....= نحلة صغيرة ..... وصمغ صنوبر حلب ... فمه ....

وهما صورتان توحيان بشلل نصفى للوجه واللسان.

وبعد فهذه قراءة سريعة مبدئية أرجو أن تكون بداية لحوار بين الطب الاشورى والطب الفرعونى مما قد يؤدى الى فهم أعمق لكليهما .